مقال

تعلّمْ في تواضع وتخيّلْ في جموح

جاد عبد الساتر

مقدمة

لعلّ من أبرز الاستنتاجات التي حصلنا عليها بفضل جائحة وباء كورونا أنّنا عرفنا أهمّيّة الصفات والقدرات الإنسانيّة كالتواضع والخيال في العمليّة التعلّميّة التعليميّة.

نهدف في هذا المقال إلى الإضاءة على أهمّيّة مفهومي التواضع والخيال لدى المعلّم ولدى الطلّاب، لأنّ القيم الاستهلاكيّة التي يسوّق لها النظام العالميّ النيوليبراليّ طغت على العمليّة التعليميّة، وعزّزت روح الكبرياء، وقولبت الخيال البشريّ ليصبح شبيهًا بالذكاء الاصطناعيّ، وتغاضت عن القيم الإنسانيّة المرتبطة بالاحتياجات اليوميّة للطلّاب وللمعلّمين.

لهذا نجد أنّ بعض العاملين في المجال التربويّ يسعون إلى تطبيق المناهج الجديدة، ويسعون وراء المؤتمرات التربويّة الضخمة دون أن يهتمّوا بتنمية قيمهم الإنسانيّة والتأمّل حولها بصورة كافية. هذه القيم من شأنها أن تؤثّر في علاقتهم مع الطالب وفي تطويره لقيمه. للحفاظ على إنسانيّة الطلبة، يجب علينا بوصفنا تربويّين أن نعلّمهم كيف يكونون متواضعين، وأن نشجّعهم على استخدام خيالهم. فما نلاحظه أنّ كثيرًا من الطلّاب، كغيرهم من الأشخاص، يدّعون العلم بالشيء والمعرفة عندما يجدون أنفسهم أمام موقف تعليميّ، فيتظاهرون أنّ لديهم علمًا أهمّ وأفضل. كيف يمكن لنا، نحن المعلّمون، أن نزرع لدى الطلّاب صفة التواضع ومهارة استخدام الخيال؟

التواضع والخيال من جهة التعريف

التواضع الحقيقيّ هنا هو روح اللطف والثقة المتوازنة في النفس. والتواضع في المجال التربويّ فيما يخصّ المتعلّم يعني أن يعي المتعلّم أنّه لا يملك كلّ المعرفة، وأنّه يطوّرها من خلال تفاعله مع الآخر مهما كان مستواه الاجتماعيّ أو الأكاديميّ.

الخيال في رأيي عمليّة بشريّة بامتياز، وهو مزيج فريد من المعارف، والخبرات، والمشاعر، والأحلام التي يمرّ بها الإنسان، وحين تضاف إليها لحظة الكشف، ينتُج عنها مولود فكريّ جديد. ويتجلّى الخيال عند الطالب في محاولة تجسيد هذا المولود الفكريّ عبر استخدام مهاراته وقدراته، لتكون المحصّلة تجربة تعلّم فريدة من نوعها.

يبقى السؤال هنا عن الكيفيّة والتوقيت، أي كيف ومتى يتعلّم الطلبة التحلّي بالتواضع وتتطوّر لديه القدرة على الخيال؟ فيما يخصّ التوقيت، الجواب ببساطة هو أنّهم يتعلّمون حين لا يعرفون أنّهم يتعلّمون. وهذا ما سأعرضه من خلال لعبتين: لعبة الاسم، وتحدّي بناء أعلى برج.

لعبة الاسم "The name game"

غالبًا ما يعاني المدرّس من مشكلة النسيان التي يتذرّع بها الطلبة كلّ حين لأنّهم ربّما يريدون إخفاء نقاط ضعفهم، أو لعدم فهم مفهوم معيّن عندما يتعلّق الأمر بحلّ مسائل رياضيّة مثلًا، أو في مواقف تعليميّة مختلفة، وأعتقد أنّ جميع التربويّين قد سمعوا كلمة "نسيت" تستخدم حجّةً، وتشكّل نمطًا في صفوفهم أو في فرق عملهم خلال مسيرتهم التعليميّة.

لحلّ هذه المشكلة، وبهدف إيصال رسالة إلى الطلّاب مفادها أنّ عدم المعرفة بالشيء أمر عاديّ ومقبول، وأنّه علينا السعي للتعلّم، اخترعت لعبةً تسمّى لعبة الاسم "The name game". وفي هذه اللعبة أدّعي أنّني أنسى أسماء الطلبة، فأغيّر أسماءهم وأراقب ردود فعلهم. ولأنّ اسم الإنسان هو أوّل رمز يعطى للإنسان عند مولده ويصبح جزءًا أساسيًّا من الأنا، افترضت أنّ ردّة فعل الشخص عندما تنسى اسمه، أو تناديه باسم شخص آخر ستكون مؤشّرًا على مقدار تواضعه، من باب أنّ من يعتبر نفسه الأفضل لا يحبّ أن يربط اسمه بشخص آخر. عندما طبّقت اللعبة على الطلبة، لم أتفاجأ كثيرًا بأنّ أغلبيّتهم لم يتقبّلوا فكرة نسيان أسمائهم، وكنت أفعل ما يفعلون، أي أعتذر لهم وأقول: "آسف نسيت"، محاولًا من ناحية أن أعلّمهم ثقافة الاعتذار، وفائدة الاعتراف بالمشكلة وهذا يدلّ على التواضع، ومن ناحية أخرى أنبّههم إلى وقع تصرّفاتهم على الآخرين.

ومن قلّة تواضع بعضهم، وعدم تقبّلهم لمناداتهم باسم غير اسمهم، ناداني بعضهم باسم آخر بدافع الانتقام، لكنّني لم أنفعل، بل وشكرتهم كثيرًا لأنّهم "ساعدوني على تذكّر اسمي لأنّي كنت قد نسيته أيضًا". وطلبت إليهم مساعدتي لحلّ مشكلة تذكر أسمائهم. فاقترح بعضهم أن يكتبوا أسماءهم على القميص، واقترح بعضهم الآخر أن نصنع لائحةً تضمّ صورهم وأسماءهم أحملها معي باستمرار، وثمّة آخرون طلبوا منّي ارتداء نظّارة يوجد فيها كاميرا تتعرّف على الوجوه وتعطيني الأسماء، وقال بعضهم: إنّهم سيعرّفون عن أنفسهم في كلّ مرّة يروننني فيها، وآخرون نصحوني أن أذهب إلى الطبيب وأعرف السبب لأعالجه. الآن أنا آخذ فيتامينات مقوّيةً للذاكرة، ونختبر مدى فاعليّتها، ويذكّرني الطلبة بمواعيد جرعاتها، وما زالت اللعبة مستمرّةً.

خلال هذه اللعبة البسيطة تعلّم الطلبة عبر طريقتي في التعامل معهم، وكيفيّة تصرّفي في المواقف المختلفة عن أهمّيّة عدم النسيان، وتأثير النسيان على الآخرين، وفضل الاعتراف بنقاط ضعفنا، وثقافة الاعتذار، وضرورة التعلّم من الآخرين، وطلب مساعدتهم، وأخيرًا استخدام مخيّلتهم لابتكار حلول لمساعدة الآخرين.

هذه اللعبة البسيطة لها تطبيقات عديدة، إذ يمكن _مع تعديلها قليلًا_ استخدامها في تعليم الرياضيّات، لمساعدة الطلبة على تذكّر أسماء الأعداد، وكيفيّة كتابتها، وخصائصها، واستخداماتها. يكون ذلك عبر إعطاء الطلبة أسماءً مكوّنةً من أعداد، والطلب إليهم أن يتصرّفوا على أساس أنّ أسماءهم أسماء أعداد: لو سمّيت طالبًا بعدد "280"، فعليه أن يحفظه كأنّه اسمه، ويستعين على ذلك بأن يتخيّل نفسه عددًا زوجيًّا، وأنّ لديه 0 آحاد و8 عشرات و2 مئات، ويعرف أن يكتبه بالصورة الكلاميّة، والصورة الرمزيّة، ويعرف أنّ العدد 279 يأتي قبله، والعدد 281 بعده. هذا يساعدنا على حلّ المسائل الحسابيّة، ويعلم الطلبة التواضع؛ لأنّ بعضهم سيتباهى بأنّه يحمل اسم العدد الأكبر، ولكنّه سيفهم فيما بعد أنّ ما يهمّ فعلًا هو الوحدة المستخدمة للدلالة على العدد.

تحدّي بناء أعلى برج "الجود من الموجود"

في هذا النشاط تحدّيت الطلبة لبناء أعلى برج، وذلك باستخدام أشياء موجودة معهم يعيدون استعمالها لتقليل الضرر على البيئة. أتتني هذه الفكرة بسبب جائحة كورونا، كان الطلبة لا يخرجون لشراء المستلزمات، ولا نستطيع إعطاءهم أدوات من عندنا، ولا يستطيعون مشاركتها مع بعضهم بعضًا. هذا لأنّني وجدت أنّ معظم الأنشطة تستخدم أدوات لا يعاد استخدامها، أو مأكولات كحلوى المارشملو وعيدان المعكرونة تستهلك أو ترمى لاحقًا، ممّا يعطي رسالةً مشوّشةً للطلبة عن حسن استخدام الموارد وعدم الإضرار بالمجتمع والصحّة والبيئة.

استخدم كلّ طالب طاولةً، وحقيبةً مدرسيّةً، وحقيبة الطعام، وكتاب الرياضيّات، ودفتر الرياضيّات، وقلم رصاص، وممحاةً، ومسطرةً، ومطرة مياه، وأخيرًا المكوّن السرّيّ وهو فردة من حذائه. وكان من شروط التحدّي البدء بتحديد المشكلة، وهي بناء أعلى برج ممكن من جميع الأدوات المذكورة أعلاه دون إضافة أو نقصان.
بدأ معظم الطلبة البناء مباشرةً دون اتّباع أيّة خطوة من خطوات التصميم الهندسيّ. عندها اضطررت أن ألفت انتباههم إلى أنّني سأقارن البرج المنفّذ بالتصميم، وأنّ أيّ اختلاف سيقصيهم من المسابقة. وهذا لأنّني افترضت بسبب خبرتي أنّ الطلبة مندفعون لا يخطّطون قبل التنفيذ.

بعض الطلبة أخذ وقته في التفكير، والتخيّل، والعصف الذهنيّ قبل البدء برسم التصميم، ومن ثمّ تنفيذه، وتقييمه، وتعديل التصميم وبنائه مجدّدًا لو دعت الحاجة، إلى أن يصلوا الغاية المنشودة، وهي بناء أعلى برج ممكن. وقد دلّ هذا على استيعابهم خطوات التصميم الهندسيّ التي كانوا قد طبّقوها سابقًا في مشكلة أخرى.

مجموعة أخرى من الطلبة كانت بحاجة إلى التشجيع، وقالوا: إنّهم لا يعرفوا أن يصمّموا. فنصحتهم أن يرسموا بطريقتهم، لكن يجب أن يضعوا أسماء الأدوات بالترتيب. وهذا يدلّ على أنّهم يحتاجون لصقل بعض المهارات الفنّيّة واليدويّة.

ثمّة طلبة لم يتجرّؤوا على البدء في التنفيذ، لأنّهم خافوا من الفشل، وقد شجّعتهم وقلت لهم: إنّنا لا نعرف ماذا سيحصل قبل أن نجرّب ونحاول، وإلّا فلن نفعل شيئًا في حياتنا. وهذا قد يدلّ على قلّة الثقة بالنفس، وخفوت الرغبة في النجاح.

ومن الطلبة من صمّم ونفّذ مرّةً واحدةً، وانهار البرج الذي بناه، فاستسلم للأمر الواقع ولم يحاول مجدّدًا، حتّى بعد التشجيع، وهذا يدلّ على قلّة الصبر لديهم، وقد ينتج أحيانًا لأنّ الطالب تعوّد على تلقّي المساعدة الفوريّة من الأهل أو من المدرّس عند التعرّض لأيّة مشكلة بسيطة. ثمّة طلبة آخرون لم يستسلموا حتّى وصلوا إلى أفضل تصميم لأعلى برج، وبالرغم من أنّهم فشلوا عدّة مرّات، فهم لم ييأسوا إطلاقًا. وهذا يدلّ على المثابرة والصبر وعدم الاستسلام.
وجدت صعوبةً في إقناع عدد قليل منهم في خلع فردة الحذاء خاصّةً الفتيات لأنّهنّ شعرن بالإحراج، وقد احتجّ بعضهنّ بأنّ الحذاء ليس نظيفًا، فطلبت منهنّ تعقيمه حلًّا للمشكلة وساعدتهنّ على ذلك. وهذا يدلّ على شخصيّة خجولة واهتمام بالنظافة والتزام بإجراءات الوقاية من كورونا.

خلال هذه التجربة لجأ بعض الطلبة إلى الالتفاف على قوانين التحدّي، وحاول استخدام شريط لاصق أو حاول أن يسند البرج على الحائط. وهذا يدلّ على رغبة بالفوز بأيّة طريقة، حتّى لو كان ذلك على حساب الشروط.
بعد أن تمّت مراجعة الأعمال، بدأنا قياس الأبراج الملائمة للشروط، ثمّ جاء إعلان النتيجة لأعلى ثلاثة أبراج، فاحتفلنا وتشاركنا التهاني، مع الحفاظ على التباعد الاجتماعيّ بالتأكيد. بعدها أجرى الطلبة تأمّلًا قصيرًا، وأعطوني التغذية الراجعة عن التحدّي. فقالوا: "إنّهم أدركوا أهمّيّة اتّباع الخطوات اللازمة لحلّ أيّة مشكلة، وعدم التسرّع والقفز مباشرةً إلى التنفيذ"، وأضافوا: "إنّ التحدّي لم يكن عادلًا لأنّ بعض الطلبة لديهم أدوات حجمها أكبر، أو أطول وشكلها مناسب للمهمّة، ولهذا كانت أبراجهم أعلى"، وعلّق آخرون ذاكرين أنّهم يحتاجون إلى وقت أطول للتفكير وللتصميم. والبعض قال: "إنّه كان من الأفضل إضافة الكرسيّ إلى الأدوات"، فاعترض آخرون بأنّه قد يقع عليهم ويؤذيهم، كما اقترح بعضهم أنّه كان من الأفضل السماح باستخدام شريط لاصق أو أيّ نوع من اللاصق لتثبيت الأجزاء بعضها ببعض. خلال هذا النشاط استخدم الطلبة خيالهم، واستمرّوا في المحاولة بكلّ تواضع، واستخدموا مهارات: التفكير، التصميم، التخطيط، التحليل، إدارة الذات، إدارة الوقت. وقد مكّنني النشاط من معرفة جوانب كثيرة من شخصيّة الطلبة، وذلك خلال مراقبتي لهم، وأخذ ملاحظات ستساعدني فيما بعد على دعمهم وتطوير قدراتهم الشخصيّة والأكاديميّة.

خلاصة

هذه الملاحظات والتأمّلات جعلتني ألاحظ أنّني حين تواضعت تعلّمت من الطلبة، وعلّمتهم بطريقة أفضل. والتواضع جعلني أستخدم الخيال من غير الشعور بالإحراج، وبهذا حاولت أن أكون مثالًا وقدوةً للطلبة، ممّا قادني إلى تحديد إحدى المشكلات الأساسيّة في العمل التربويّ، والتي غالبًا ما نبحث عن حلول لها في المكان الخاطئ.

المشكلة الحقيقيّة تنبع من قلّة التواضع وفقر الخيال عندنا بوصفنا تربويّين، إذ إنّ معظم جهدنا ووقتنا في العمل التربويّ يذهب هدرًا لكي نثبت للآخرين أنّنا نفهم ونعرف ونتقن الأمور أفضل منهم، وأنّ وجهة نظرنا هي الأصحّ والأدقّ والأشمل والأفضل، ونصرّ على تطبيق ما نعرفه من استراتيجيّات بصورة حرفيّة، وأحيانًا شخصيّةً، بمعزل عن استخدام خيالنا لجعلها ممتعةً مثيرةً مناسبةً لاحتياجات طلبتنا. ويتجلّى هذا بوضوح عندما نطلب من طلبتنا العمل في مجموعات لإيجاد حلّ للمشكلات، ونراهم يضيّعون الوقت والجهد والمصادر، فقط لأنّنا لم نكن لهم مثالًا للتواضع، ونراهم أحيانًا مفتقرين للابتكار، لأنّهم لم يستخدموا خيالهم، وهذا بسبب عدم توفيرنا الفرص الملائمة المحفّزة للخيال. كما يقول المثل "فاقد الشيء لا يعطيه".

جاد عبد الساتر
معلّم ومنسق للعلوم والرياضيّات
لبنان/ قطر